الفصل الخامس

العلوم المساعدة للتاريخ

بعد أن اتسع نطاق علم التاريخ فشمل مظاهر الحياة البشرية فى كل اشكالها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بدأ التقارب يزداد بين الدراسات التاريخية والعلوم الأخرى كى تساعدها بالنتائج التى حصلت عليها من أجل استكشاف حقيقة الماضى ، ووضعها فى اطارها الصحيح .

ومن هنا اخذت العلوم المساعدة فى الازدياد . وتختلف أهمية هذه العلوم باختلاف الموضوع الذى يقوم الباحث بدراسته ، والعصر الذى يتعرض له .

والباحث فى التاريخ يلزمه أن يتقن هذه العلوم ويحسن الانتفاع بها . وغالبا ما تمد هذه العلوم المؤرخ بما يحتاج من مواد مساعدة فى أثناء كتابة بحوثه ، فالعلماء المختصون بأوراق البردى يمدون مؤرخ التاريخ القديم بما لديهم من نصوص سواء كتبت بلغة هيروغليفية أو هيراطيقية أو ديموطيقية أو يونانية وعلماء الآثار القديمة يمدونه بنتائج حفائرهم الأثرية وبمعلوماتهم الخاصة عن التماثيل والخزف وأدوات البناء ، وعلماء النميات يتأكدون من صحة قطع النقود أو المعادن وتاريخها ويقدمونها الى المؤرخ على طبق من فضة للاستفادة منها وعلماء دراسة الأختام يدللون على صحة الوثائق المختومة حتى يمكن أن يستفيد منها المؤرخ ، وعلماء الانساب يبرهنون على صحة تسلسل النسب ، ويقدمون الجداول الخاصة بذلك ليستفيد منها المؤرخ ، والفهرسون فى دور الكتب يمدون المؤرخ بالمعلومات اللازمة عن الكتب والمؤلفين عن طريق الفهارس والكتالوجات لمساعدته فى اعداد دراساته والمعجميون الذين يعدون المعاجم ويبينون اشتقاق الكلمات غالبا ما يكون عملهم ذا فائدة للمؤرخ ، والمختصون بالعلوم الاجتماعية والنفسية الذين يقومون بعمل الاحصاءات عن تعداد السكان ، والتطور

الاجتماعى وغيره يمكن أن يكون عملهم ذا نفع للمؤرخ [١] ولا ريب فى أن ابن خلدون كان أبعد نظرا عندما رأى أن يحصل المؤرخ على ثقافة اجتماعية تعينه على تفهم حوادث التاريخ ، وهذا ما دفعه الى الحديث عن علم العمران .

والى جانب ذلك فان علماء حساب التواريخ الذين يقومون بشرح التقاويم العديدة يمكن أن يبسطوا للمؤرخ مسألة قياس الزمن وضبطه [٢] يضاف الى ذلك أن من واجب المؤرخ أن يكون ملما بالفلسفة ، وعلم الأجناس ، والجغرافيا والعلوم الطبيعية التى تتصل بالتاريخ مثل علم طبقات الأرض وغيره ، كما يتحتم عليه أن يتمتع بثقافة سيكولوجية حتى يكون قادرا على تفهم الحياة المعاصرة ، والكشف عن الحقيقة التاريخية معتمدا فى ذلك على أن الدراسة التاريخية تتجه فى المقام الأول الى خدمة الأغراض الانسانية والعلمية ، فالانسان دائم الشعور بالحاجة الى تكوين صورة واضحة عن الماضى بحيث تكون هذه الصورة اطارا عاما لنشاطه فى الحاضر الذى يمكن القول بأنه نقطة تقاطع بين الماضى والمستقبل ، وهذا هو السبب فى أن كل جيل يشعر بالضرورة التى تدفعه الى اعادة كتابة تاريخه [٣] .

وفيما يلى نعرض لبعض العلوم المساعدة للتاريخ :

---

(١) هناك فارق أساسى بين التاريخ والعلوم الاجتماعية فالأول يهتم بالأحداث الفردية الماضية فى ترابطها الزمنى فى حين ان الأخيرة تحاول أن تنظم الأحداث الحاضرة والماضية فى نظريات أو قوانين وصفية ومع هذا فان مجال التعاون بينهما واسع وثماره مفيدة .

(٢) التفاصيل انظر : لويس جوتشلك : كيف نفهم التاريخ — مدخل الى تطبيق المنهج التاريخى — ترجمة عائدة سليمان وأحمد أبو حاكمة بيروت ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٦ ص ١٤٨ — ١٥٢ .

(3) W. H. Walch : op. cit., p. 111

١ — الفقـــه :

الفقه فى اللغة يعنى الفهم والفطنة بوجه عام ، ثم اختص بعلـــوم الشريعة وأصول الدين [٤] كما يعنى العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية ، وبعبارة أخـــرى هو تطبيق أحكام الشريعة على أعمـــال البشر للفصل بين حلالها وحرامها والفقـــه علم مستنبط بالرأى والاجتهاد من أئمة القوم المعنيين بأمر الدين كالصحابة ومن اليهم من التابعين وغيرهم وخاصة انه يشمل جميع العلوم الدينية والغرض منه اســـتنباط الأحـــكام الشرعية الفرعية من أدلتها الأربعة وهى الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس .

ومن المنطقى أن يجد الباحث فى التاريخ الاســـلامى فى كتب الفقـــه كثيرا من الموضوعات عن نظم الشعوب الاسلامية وأحوالها وبخاصـــة فى العصور الاسلامية الزاهـــرة ولا سيما أن الفقهاء يتجهون فى بحوثهم الى الجوانب المتعددة من حياة المسلمين فيكتبون عن الأحـــوال الاقتصـــادية والاجتماعية والمـــالية ، كما يتعرضون للعادات والتقاليد لذلك يمكن اعتبار كتب الفقه مصدرا ثمينا للمعلومات عن الأحـــوال التى كان المســـلمون يعيشونها ، والمشكلات التى كانوا يتعرضون لها ، والعـــادات التى كانت تنتشر بينهم .

ومع كل ذلك فيجب أن تؤخذ المعلومات الواردة فى هذه الكتب بعين المؤرخ النافذة ، وخاصة فيما يتعلق بالبيانات التاريخية التى تعرضـــت لهـــا [٥] .

٢ — علم الحديث :

الحديث أو السنة عند المسلمين ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو اقـــرار ، حفظه الصحابة وأخذه عنهم تابعوهم

---

(٤) أنظر . المعجم الوسيط ج ٢ ص ٧٠٥ .

(٥) سيدة كاشف : مصادر التاريخ الاسلامى ومناهج البحث فيه ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م صفحة ٧٨ — ٧٩ .

ويبحث هذا العلم فى سند الاحاديث النبوية المنسوبة الى الرسول الكريم من حيث دقة رواتها ، وكيفية اخذهم الحديث ، ومدى صلتهم بنبى الاسلام . وقد أوضح ابن الأثير فى جامع الأصول أهمية علم الحديث بقوله انه ثانى أدلة الأحكام . والكتب المصنفة فى علم الحديث كثيرة ، وأهمها صحيح البخارى ثم صحيح مسلم ويعرفان بالصحيحين ثم الموطأ لمالك بن انس ثم كتب فى الحديث بعد هؤلاء الثلاثة أبو داود السجستانى وأبو عيسى الترمذى ، وأبو عبد الرحمن النسائى ، وتوسعوا فى جمع الأحاديث فزادوا على الصحيح منها ما هو دونه رتبه من الحسن وغيره . ومؤلفات هؤلاء الأئمة الستة هى أمهات الكتب فى الحديث وتعرف بالستة الصحاح واليها النهاية فى هذا العلم ، وكل ما ألف بعدها فهو شرح أو تلخيص أو تعليق عليها .

٣ — علم فقه اللغة (الفيلولوجيا) :

وهو علم لهأصوله وقوانينه الخاصة التى تفسر لنا تطور ألفاظ اللغة وقواعدها ، وكلما بعد العصر موضوع الدراسة ازدادت أهمية هذا العلم ، وأصبحت معرفته هامة وضرورية للمؤرخ اذ لا يمكنه فهم وثيقة قديمة أو نصوص تاريخية من عصر سابق الا اذا فهم معانى الفاظها والكلمات التى كانت تستعمل فى ذلك الوقت ، وكثيرا ما يقع بعض الباحثين فى هذه الأخطاء نتيجة لعدم فهمهم لقوانين اللغة وقواعدها . مثال ذلك أن اللغة العربية فى القرن الماضى مختلفة عن العربية اليوم ، فقد تدهورت هذه اللغة فى العصر العثمانى بسبب تعدد الدخيل فيها ، وزحف اللغة التركية عليها وخاصة فى الدواوين الحكومية وخير مثال على تدهور اللغة العربية فى ذلك الوقت ما كتبه المؤرخ « عبد الرحمن الجبرتى » فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » و « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » حيث يتضح مدى تأثر الجبرتى بطابع عصره فى انحطاط الأسلوب وشيوع العجمة فى التراكيب ، والتردى فى الكثير من الأخطاء النحوية واللغوية ، بينما تغيرت هذه الأمور فى الوقت الحالى بعد أن تخلصت العربة من معظم الألفاظ التركية ، ومن هنا يتحتم على المؤرخ أن يكون ملما بالقواعد الأساسية لهذا العلم ، والتطورات التى حدثت له حتى يفهم النص التاريخى على حقيقته .

٤ — علم الأنســـاب :

هو علم تعرف به أنســـاب الناس ، بغرض الاحتراز عن الخطـــأ فى نسب شخص[٦] ، وقد حث الرسول الكريم على تعلمه بقوله : « تعلموا أنسابكم تصلوا أرحامكم » وقد استخدم العرب الأنســـاب باعتبارها من أنماط المعرفة التاريخية ، وأداة حضارية تناسب ظروف انقسام مجتمعهم الى قبائل ، وبقيت الأنساب تؤدى دورها فى خدمة المجتمع العربى على أنها من فروع التاريخ ، وكانت تحفظ شفاها عن ظهـــر قلب ، كما كان لكل شريلة نسابتها المشهورون الذين يتفاخرون بامجاد الأجداد والآباء وقـــد ذكر النويرى ذلك فى كتابه « نهاية الأرب فى فنون الأدب » والى جانب ذلك فان المعرفة بعلم الأنساب من الأمور الأساسية التى يترتب عليها كثير من الأحكام الشرعية والمعالم الدينية ، وأحكام للوراثة ، وأحكام الأوليـــاء فى النكاح وأحكام الموقف ، واعتبـــار النسب فى كفاءة الزوج والزوجـــة فى النكاح ونتيجة لذلك فان المؤرخ غالبـــا ما يجـــد فى علم الأنساب شجرات النسب التى يستطيع من خلالها التعرف على صحة نسب الشخصية التى يقوم بدراستها .

٥ — الحســـبة :

الحسبة شرعا كما يذكر ابن خلدون « وظيفة دينية من باب الأمـــر بالمعروف والنهى عن المنكر [٧] » وقد نشأ نظام الحسبة فى عهـــد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث تولاها بنفسه ثم انفـــرد لها واليا خاصا ، وقد اقتدى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالرسول فقام بوظيفة الحســـبة بنفسه ، وكان كثير التجوال بين المسلمين ليلا ونهارا يوجههم بالتـــزام احكام الدين ومقتضياته فى أمورهم الدينية والدنيوية . وسار على بن أبى طالب رضى الله عنه على هذا المنوال فكان يطوف بأسواق الكوفة ليرى الأوزان والمقاييس التى يستخدمها الباعة .

---

(٦) للتفاصيل انظـــر جلبى : المصدر السابق ص ١٥٧ .

(٧) أنظـــر : مقدمة ابن خلدون ص ١٩٧ .

وعن معنى الحسبة فى اللغة انظـــر ، المعجم الوسيط ج ١ ص ١٧١ وابن منظور : لسان العرب ص ٦٢٩ — ٦٣١ .

ولما اتسعت الفتوحات الاسلامية ، وكثرت مهام الدولة وتخصصت وظائفها صارت الحسبة من أهم الاجهزة الادارية فى النظام الاسلامى واصبح المحتسب يشرف على الشئون العامة من مراقبة الاسعار ، ورعاية الآداب ومراعاة احكام الشرع والسهر على حماية المجتمع (٨) .

وللحسبة صلة قوية بخصائص القضاء ونظر المظالم ، فالمحتسب يفصل فى المنازعات الظاهرة التى لا تحتاج الى ادلة ، كما يتولى تأديب من يجاهر بالمعاصى ، أو يخرج على المألوف من ادب المسلمين ونتيجة لذلك وصف الماوردى الحسبة بأنها وسط بين أحكام القضاء واحكام المظالم (٩) .

وكتب الحسبة تحوى العديد من الموضوعات والبيانات الهامة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى البلدان الاسلامية والتى يمكن ان تكون من المصادر الأساسية التى تساعد المؤرخ فى التعرف على احوال المسلمين الاجتماعية والاقتصادية والمعيشية وغيرها .

٦ — العملات او النميات او المسكوكات :

تعد دراسة العملات الاسلامية اساسا هاما لدراسة التاريخ السياسى والاقتصادى للدولة الاسلامية ، فالكتابات المنقوشة على السكة تتضمن أسماء الخلفاء والسلاطين والقابهم ، وتاريخ الضرب ، وبعض عبارات خاصة بالمذهب الدينى السائد ، والمدينة التى ضربت فيها العملة . ولذلك فان العملات تعد سجلا للألقاب والنعوت التى توضح كثيرا من الاحداث السياسية والاقتصادية ، فتفيد فى تحقيق الكثير من الحوادث مثل فتح بعض البلاد عنوة أو صلحا ، كما تفيد فى معرفة الحالة الاقتصادية للعصر الذى استعملت فيه هذه العملات للتداول ، والى نوع الفقد المستعمل واشكاله (١٠) .

---

(٨) للتفاصيل انظر البغدادى : سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب ، المكتبة العلمية ص ٥ .

(٩) انظر الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٢٤١ .

(١٠) سيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨١ ص ١٥٦ — ١٦٤ .

— علم قراءة الخطوط (الباليوجرافيا Phaleography

يتحتم على المؤرخ التعرف على هذا الفن الذى يستخدم فى قراءة خطوط اللغات القديمة كالفرعونية والاغريقية واللاتينية . فالمؤرخ الذى يقوم بدراسة تاريخ مصر القديم تضطره طبيعة بحثه الى معرفة الكتابة الهيروغليفية (الخط المقدس) الذى استطاع شمبليون Champollion التوصل الى أسرارها بعد اكتشاف حجر رشيد Rosetta Stone فى عام ١٧٩٩ م .

والباحث الذى يقوم بدراسة علاقات العرب مع أوربا العصور الوسطى يفرض عليه بحثه معرفة الكتابة اللاتينية كما يتحتم على الباحث فى تاريخ الدولة العثمانية أن يتعرف على الخط الديوانى الذى كانت تكتب به الأوامر السلطانية وعلى خط القيرمة الذى كان يستخدم فى شئون الدولة العثمانية الادارية والمالية حتى يستطيع تفهم وثائق ذلك العصر .

٨ — اللغات :

العلم ليس له وطن وليس وقفا على أمة من الأمم بل هو تجارب شاركت فيها معظم الأمم لذلك فان المؤرخ فى اشد الحاجة الى التزود ببعض اللغات حتى يستطيع القيام بالمقارنة ، وتفهم ما تعرضه الأطراف المتعددة التى لها دخل فى موضوع دراسته ، وخصوصا ان الترجمة وحدها لا تكفى . وتختلف نوعية اللغات التى يجب على المؤرخ معرفتها وفقا لتخصصه فمؤرخ التاريخ القديم اذا أراد دراسة فترة من فترات تاريخ مصر الفرعونية فيتحتم عليه معرفة الهيروغليفية والديموطيقية والانجليزية وغيرها . ومؤرخ التاريخ الاسلامى أو الوسيط اذا أراد دراسة تاريخ احدى البلدان العربية فى العصر العباسى فلابد له من التعرف على اللغات العربية والتركية والفارسية . ومؤرخ التاريخ الحديث اذا أراد التعرض لتفاعلات عصر النهضة الأوربية فلابد له من معرفة اللغة اللاتينية المتأخرة ، واذا أراد التعرض لتاريخ المسالة المصرية خلال القرن التاسع عشر فلابد له أن يكون ملما بالانجليزية والفرنسية والتركية هذا بالاضافة الى لغته الأصلية حتى يستطيع أن يتفهم الوثائق الخاصة بهذا الموضوع . واذا أراد أن يدرس

الصراع فى أوربا من أجل السيطرة على المستعمرات فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فلابد له من معرفة اللغات الفرنسية والألمانية والايطالية وغيرها . وهذا يعنى أن مؤرخ التاريخ الحديث مثلا قد يكون أقل حاجة لمعرفة اللاتينية القديمة من مؤرخ التاريخ القديم أو الوسيط .

١ — علم الوثائق Diplomatics

مفهوم الوثيقة يشمل كل أثر مكتوب أو محفور أو منقوش والدارس لهذا العلم يجمع بين عمل الآثارى فى حفره وتنقيبه وعمل المحقق الباحث فى فك الرموز والطلاسم التى يقدمها النص وبخاصة فى الوثائق التركية العثمانية والفارسية أو العربية التى كتبت فى العصر العثمانى وما يقترب منه والى جانب ذلك فان علم الوثائق يساعد المؤرخ على التعرف على تطور علم الخطوط والتعرف على أسلوبها وفهم مصطلحاتها عن طريق معرفة نوع الورق أو الزجاج أو المادة التى كتبت عليها الوثيقة ، كما يساعده على التعرف على الأحبار التى استخدمت فى كتابة الوثيقة (١١) والخاتم الذى مهرت به ونوعه .

والوثائق تعد بمثابة المادة الخام التى يصنع منها التاريخ والتى يمكن أن تنطوى على أفكار جديدة وخلاقة ، لأنها بقيت على حالتها التى صيغت بها ، ولأنها أقدم مصدر يمكن العثور عليه لايضاح حدث معين ، ولأنها الشىء الوحيد الباقى من الواقعة التاريخية ، والأساس الوحيد الذى يقوم عليه التاريخ (١٢) .

وعلم الوثائق أو علم الدبلومات Diplomatics يعد من العلوم الأساسية فى الدراسة التاريخية لذا ينبغى على المؤرخ التعرف على المصطلحات الخاصة بالوثائق التى يقوم بدراستها حتى يجد بين سطورها من الحقائق ما يستكمل به بعض الحلقات المفقودة فى التاريخ .

---

(١١) قاسم السامرائى : مقدمة فى الوثائق الاسلامية ، الرياض ، دار العلوم ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ ص ٧ — ٨ .
(١٢) بدوى : المرجع السابق ص ٢١٨ .

وعلى الرغم من أهمية الوثائق فانه ينبغى على المؤرخ أن يعلم انها يمكن أن تتأثر بالميول والأحكام الشخصية من جانب من يسجلونها ، كما ينبغى عليه ايضا الحذر والحيطة الدائمة من قيام البعض بتزوير الوثائق من أجل تثبيت ادعاء أو لقب باطل ، واحيانا اخرى تزيف الوثائق من أجل بيعها فقد ظهرت رسائل مزورة للملكة « مارى انطوانيت » كما اتضح أن المذكرات التى نسبها البعض الى هتلر مزورة . ولكى يميز المؤرخ الوثيقة الأصلية من المزيفة أو المحرفة يجب عليه أن يستخدم الاختبارات المتبعة فى هذا الأمر ، فتختبر المواد الكتابية للحكم عليها اكانت معروفة فى التاريخ الذى ترجع اليه الوثيقة . فمثلا الورق كان نادرا فى أوربا فى القرن الخامس عشر ، والطباعة كانت مجهولة آنذاك وأما أقلام الرصاص فلم يكن لها وجود هناك قبل القرن السادس عشر ، وأما الطباعة على الآلة الكاتبة فلم تعرف الا فى القرن التاسع عشر ، وكذلك يفحص المؤرخ الحبر بحثا عن العلامات التى تحدد عمره اولا ، باحثا عن تركيب كيماوى يثبت أنه متأخر عن تاريخ الوثيقة . وبعد أن يبذل جهده فى معرفة مؤلف الوثيقة يحاول — اذا كان فى استطاعته — أن يتحقق من الخط والتوقيع ، والخاتم ، واصل الورق أو العلامة المائية المميزة فى الورق ، ومقارنة الخط بعينات أخرى منه [١٣] وخاصة ان هجاء الكلمات وضبطها قد يكشف التزوير .

١٠ — علم الآثار Archelogy

هناك صلة وثيقة بين علم الآثار وعلم التاريخ ، فمنذ أن اكتشف فرنسوا شامبليون Champollion فى عام ١٨٢٢ رموز الكتابة الهيروغليفية صار من عمل المختصين بدراسة تاريخ مصر القديم ، وعلماء أوراق البردى امداد المؤرخ بترجمات للنصوص والنقوش التى يعثرون عليها . وصار مؤرخو العصور القديمة يعتمدون اعتمادا كبيرا على النتائج العلمية التى يتوصل اليها علماء الآثار الذين يقومون بحفر الأرض بمعاولهم ، ويقيمون تحت لهيب الشمس الحارقة بهدف كشف مجرى الحضارة الانسانية وخاصة ان هؤلاء المؤرخين يجدون ماضى البشرية يبرز

---

(١٣) جوتشلك : المرجع السابق ص ١٤٣ .

من خلال الآثار والمدونات من بقايا الماضى التى تركها السلف والتى تعد فى بعض الأحيان المصدر الوحيد لبعض حقب التاريخ القديم . فقد أمد علم الآثار مؤرخ التاريخ القديم بمعلومات هامة عن الطقوس الدينية والحياة الأسرية والاجتماعية والحرف والتقاليد والعادات فضلا على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى عاشتها مصر خلال هذه الأيام . وهذه المعلومات فى مجملها تعتمد على الآثار الصامتة دون النصوص الناطقة وتستند على أساس من البيان الصامت الصادق الذى يترك المؤرخ أعمال القدماء ومخلفاتهم تتحدث عن نفسها بهدف معالجة قصة الانسان وحضارته خلال آلاف عديدة من السنين ، والكشف عن نشأة المدنية وتطورها .

وحول أهمية الآثار بالنسبة لمؤرخ التاريخ الاسلامى فان مؤرخى التاريخ الاسلامى يعتمدون أيضا — وفى كثير من الأحيان — على النتائج العلمية التى يتوصل اليها علماء الآثار الاسلامية بغرض الوصول ببحوثهم فى تاريخ العرب والمسلمين الى ما هو أقرب الى الكمال وخاصة ان الآثار الاسلامية تعد من المصادر الأصلية فى كتابة التاريخ الاسلامى ، كما أن الزخرفة الاسلامية راعت أصولا من أصول العقيدة الاسلامية والتاريخ الاسلامى . ومن هنا تكون طرافتها وقوتها ثم تأثيرها فى الكتابة التاريخية .

١١ — علم الجغرافيا :

قام علم الجغرافيا أو تقويم البلدان كما عرف عند العرب على رحلات الرحالة والجغرافيين الى الاقطار والبلدان المختلفة ، ودراسة تضاريسها وجبالها ووديانها وانهارها ومناخها ، عادات سكانها ، وطرقها وشعابها وحاصلاتها .

وقد تميز هؤلاء الرحالة بنظرتهم الواقعية الى مختلف الموضوعات التى كتبوا عنها ، وكان من أبرز هؤلاء المسعودى فى كتابيه « التنبيه » و « مروج الذهب » والمقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم » والادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وابن حوقل فى « المسالك والممالك » وقد ارتبطت كتابة التاريخ عند المسلمين بعلم الجغرافيا الذى يعد من العلوم المساعدة الأساسية لدراسة التاريخ وخاصة أن الأرض هى

مسرح العمليات الذى تحدث عليه الوقائع التاريخية وهى ذات أثر كبير فى توجيه مصاير البشرية ، فهى التى تطعم الانسان وتؤثر فى مستوى حياته ، وفى فكره وحضارته . هذا الى جانب أن الواقعة التاريخية مرتبطة حتما بمكان وزمان معينين ، والا فقدت قيمتها التاريخية الحقيقية .

والى جانب ذلك فان للمناخ أثره الواضح فى تشكيل قدرات الانسان ومواهبه ، فالانسان الذى يعيش فى مكان حار مثلا يختلف عن نظيره الذى يعيش فى مكان بارد من حيث نوعية اهتماماته وقدراته ومدى تأثيره فى المجتمع الذى يعيش فيه ، ولقد كان المناخ فى مصر مثلا عاملا مهما فى طبع النفس البشرية بالسوية لعدم اتسام المناخ بالانقلابات الفجائية ، وقد يكون لذلك أثره فى انتشار روح الدعابة والنكتة بين المصريين يضاف الى ذلك أن المناخ يمثل عاملا مهما فى استكمال القدرة على تفاعل الانسان مع البيئة ، فنحن نجد أهل البيئة الصحراوية أحد مزاجا من غيرهم والشعر الجاهلى مثلا صورة صادقة لطبيعة البادية ، وحياة البدو فألفاظه خشنة ، وأخيلته مجدبة فى معظم الأحيان . والى جانب ذلك فان الموقع الجغرافى لأى بلد قد يؤثر فى تقدمه الحضارى وتطوره الاقتصادى ، وفى نشر العلوم والفنون بين أفراده وعن ذلك يذكر ابن خلدون ان مجرى التاريخ يعتمد على ظروف البيئة أكثر مما يعتمد على دور الناس .

١٢ — علم الانسان (الأنثروبولوجيا) :

ربما كان علم الانسان أشد العلوم الاجتماعية ملاءمة للمؤرخين ، وخاصة أن هذا العلم يعالج بالضرورة المسائل التاريخية عند تتبعه مجرى التطور البشرى ، وانتشار البشرية على سطح الأرض ، ونشوء الثقافات الانسانية ، وتتبع الحلقات السلالية فى سلسلة تاريخية متتالية من الظواهر المترابطة ، وكل ذلك يمد المؤرخ باعظم فكرة مباشرة .

١٣ — علم الاجتماع :

اذا قلنا ان علم الاجتماع يدور حول بناء المجتمع ومشكلات الأسرة ، فانه بذلك يساند الباحث فى التاريخ الاجتماعى ويكسبه أفكارا ومدركات

جديدة بدراسة ما كتبه علماء الاجتماع حول موضوعات مثل : الاخلاق ، والعادات ، والتقاليد ، والذوى الاجتماعى ، والمؤسسات وغيرها كما أن دراسة الانتقال فى الامم الصناعية المتقدمة من مرحلة العادات والاعراف الشعبية الريفية الى العادات والاعراف المدنية توفر فرصة ممتازة فى مجال التعاون بين المؤرخين وعلماء الاجتماع .

١٤ — علم النفس :

يحتاج المؤرخ الذى يترجم لحياة الأشخاص الى التعرف على أساليب المعاينة النفسية ، حتى اذا تعرض لدراسة احدى الشخصيات كان مدربا على المناهج النفسية فركز تركيزا قويا على عمليات نشوء الشخصية وتكوينها ، وعلى وصف سلوك الفرد وتحليله على أساس الأدوار الاجتماعية التى قام بها ، والتفاعلات التى تعرض لها تجاه احداث معينة . وكذلك فان محاولات التعرف على المكونات النفسية لشعب من الشعوب تساعد على تفهم الكثير من الأحداث التاريخية التى تعرض لها أفراد ذلك الشعب والى البرهنة على قضايا معينة . ومن هنا فان العلوم النفسية لها اهمية بالغة لدى المؤرخ لأنه يستطيع عن طريقها التعرف على الكثير من مشكلات الحاضر ، والتنبؤ باتجاهات المستقبل .

١٥ — الموسوعات التاريخية والمعاجم :

كلمة موسوعة ترجمة لكلمة Ensyclopedia الافرنجية وهى لفظ مركب من ثلاثة مقاطع هى en بمعنى فى ، Syclo بمعنى دائرة ، pedia بمعنى تعليم فتكون الترجمة الحرفية لهذا اللفظ « فى دائرة التعليم » ولذلك ترجمها البستانى « دائرة معارف » واطلق عليها صاحب مفتاح السعادة اسم موسوعة . وتعد الموسوعات بمثابة خلاصة جهود العلماء والباحثين .

ويرجع بداية عصر الموسوعات الى رغبة علماء المسلمين فى انقاذ الثقافة الاسلامية بعد سقوط بغداد على ايدى التتار فى عام ٦٥٦هـ وذلك عن طريق جمع المواد التى تتألف منها هذه الثقافة فى كتب كثيرة على

شكل موسوعات عظيمة لاتدع صغيرة ولا كبيرة من مواد هذه الثقافة الا أحصتها .

والموسوعات العربية عديدة ، وسنكتفى فى هذا المقام بعرض أربع منها وهى :

كتاب نهاية الأرب للنويرى .

وكتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى .

وكتاب صبح الأعشى للقلقشندى ثم الموسوعة العربية الميسرة التى أشرف على ظهورها الى الوجود الاستاذ محمد شفيق غربال .

أولا — نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى :

وقد تم تأليف هذه الموسوعة فى زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون وذلك فى ثلاثين جزءا وقد ذكر صاحبها أنها تشمل خمسة فنون ، حسنة الترتيب ، بينه التقسيم والتبويب ، كل فن منها يحتوى على خمسة أقسام :

الفن الاول : فى السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية .
والفن الثانى : فى الانسان وما يتعلق به .
والفن الثالث : فى الحيوان الصامت .
والفن الرابع : فى النبات .
والفن الخامس : فى التاريخ .

ويبدو أن المؤلف أراد من كتابه موسوعته أن يلم بأكثر العلوم والمعارف الانسانية فى عصره حيث يدرك القارىء انه مزج فيها العلوم بالآداب ، وان كانت الصنعة الأدبية غالبة على هذه الموسوعة .

ومن اليسير على كل متفحص لهذه الموسوعة أن يعرف ان صاحبها اعتمد فى كتابتها على مصادر متعددة منها كتب ابن المقفع وابن قتيبة والماوردى والجرجانى والجاحظ وغيرهم .

ثانيا : مسالك الأبصار لشهاب الدين العمرى :

وقد تم تأليف هذه الموسوعة أيضا فى زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون وذلك فى أربعة عشر جزءا وموضوع الموسوعة هو الجغرافيا أو علم البلدان وهو كما يذكر المؤلف « وصف الأرض وما اشتملت عليه برا وبحرا وهو قسمان : أولهما — فى الأرض وثانيهما — فى سكان الأرض. والقسم الأول منهما نوعان : أولهما المسالك ، وثانيهما الممالك .

أما المسالك ففيها وصف لمقدار الأرض وهيئتها وذكر للاقاليم السبعة ، والبحار وما يتعلق بها ، وذكر للطرق ، وذكر للقبلة ، وكيف يستدل عليها وغير ذلك . وأما الممالك ففيها وصف تفصيلى للبلدان الاسلامية دون غيرها من الممالك الأخرى .

وأما القسم الثانى من الموسوعة فينقسم الى ابواب منها باب فى الديانات ، وباب فى المقارنة بين المشرق والمغرب وباب فى طوائف المتدينين ثم باب فى التاريخ .

ومؤلف هذه الموسوعة يعنى فى دراسته عناية واضحة بمصر وشعرائها وحياتها الاجتماعية والادبية أكثر من عنايته بالاقطار الاسلامية الأخرى ، كما أنه ينتقل فى كتاباته من الجغرافيا الى العديد من المعارف الأخرى مثل التاريخ والأدب والدين والآثار .

ثالثا : صبح الأعشى فى صناعة الانشا للقلقشندى :

حصر القلقشندى نفسه فى هذه الموسوعة فى صناعة الانشاء ، وان كان قد اتخذ من حديثه عن الانشاء وسيلة الى جمع العديد من المعارف الانسانية فى عصره وعن مادة الموسوعة فقد جعلها المؤلف فى مقدمة وعشر مقالات وخاتمة ففى المقدمة تعرض لفضل الكتابة وحدد معناها لغة واصطلاحا وبين معنى الانشاء وغير ذلك من الموضوعات .

وفى المقالة الأولى تحدث القلقشندى عما يحتاج اليه الكاتب من النحو والصرف والبديع والبيان واشعار العرب وانسابهم ، ومعرفة المداد وانواع الاقلام حتى تكون كتاباته ذات فائدة وقيمة .

وفى المقالة الثانية تحدث المؤلف فى الجغرافيا عن المسالك والممالك وشكل الأرض والبحار ثم تطرق الى التاريخ فتعرض لعديد من حكام المسلمين من عصر الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين فالفاطميين ثم تطرق الى حكام المسلمين فى المغرب والاندلس .

وفى المقالة الثالثة تعرض المؤلف للألقاب وارباب الوظائف الادارية ، وما تفتتح به الكتابة وما تختتم واسهب فى وصف الورق وادوات الكتابة .

وفى المقالة الرابعة موضوعات عن البلاغة والشعر والصبغ الكتابية وتاريخها .

وفى المقالة الخامسة حديث عن الولايات وبيان طبقاتها وعن البيعات والعهود وما شاكل ذلك .

وفى المقالة السادسة حديث عن الوصايا الدينية ، والمقارنة بين السنين الشمسية والقمرية .

وفى المقالة السابعة حديث عن الاقطاعات والمقاطعات وأصلها فى الشرع .

وفى المقالة الثامنة تعرض المؤلف للأيمان واللغو فيها ونحو ذلك .

وفى المقالة التاسعة تحدث المؤلف عن عقود الصلح والهدنة بين المسلمين وغيرهم وبين ملوك المسلمين وبعضهم .

وفى المقالة العاشرة تناول المؤلف بالحديث الكتاب والكتابة وقارن بين الكتابة الجدية والكتابة الهزلية .

أما فى الخاتمة فقد تعرض المؤلف للبريد وحمام الزاجل ودوره فى نقل الرسائل الى آخره .

رابعا : الموسوعة العربية الميسرة :

بذلت العديد من الجهود من اجل عمل موسوعة عربية ميسرة تسهل للباحثين والمثقفين الحصول على مطلبهم بسهولة ويسر ، ونتيجة لذلك

شرعت مؤسسة فرانكلين للطبع والنشر بالقاهرة فى عام ١٩٥٨ فى اخراج موسوعة عربية مختصرة فى مجلد واحد فكونت مجلسا يضم سبعة عشر عالما واديبا من مصر ومن السودان والشام والكويت برياسة الأستاذ محمد شفيق غربال مدير معهد الدراسات العربية فى ذلك الوقت يتولى ادارة العمل وتنظيمه فاستعان هذا المجلس بعدد كبير من الخبراء فى مختلف فروع المعرفة من أدب واجتماع ودين وطب وتاريخ وغير ذلك .

وبدأ مجلس الموسوعة عمله متخذا اساسا له موسوعة (كولمبيا فايكنج دسك) ذات المجلد الواحد المطبوعة سنة ١٩٦٠ ، واستعان بخبرة القائمين باخراج تلك الموسوعة ولم يقف جهد أولئك العلماء على مجرد التعريب ، بل ظهر لهم بعد العمل أن ما يجب حذفه من موسوعة كولومبيا كثير ، وأنه يجب أن يضاف اليها اكثر بحيث لم يبق بعد الحذف والاضافة سوى ما يقارب ستين فى المائة من تلك الموسوعة . أما الأربعون فى المائة فهى مواد جديدة أو معدلة تعديلا جوهريا .

وقد حرص مجلس المديرين على أن تكون هذه الموسوعة عربية حديثة بمعنى الكلمة ، وان تخرج فى أسلوب واضح جذاب وهذه الموسوعة اول عمل موسوعى من نوعه يصدر بالعربية من حيث كونها موسوعة عامة للعرب ، ومن حيث كونها مبسطة مركزة فى مجلد واحد ، وفى حجم معقول .

لقد تآزرت جهود كبيرة لاخراج هذا الاثر العلمى المتميز فخرجته الموسوعة فى مجلد يقع فى الفى صفحة ، تناولت واحدا وعشرين الف موضوع . والموسوعة ملأت فراغا يحس به كل باحث فى اى مجال من مجالات البحث التاريخى ، وان كانت قد اهملت ذكر كثير من الموضوعات المهمة ومن تراجم العلماء (١٤) .

هذا عن الموسوعات أما عن المعاجم فكثيرا ما تسهل للباحثين

---

(١٤) العرب : السنة الأولى رجب ١٣٨٦ — جمادى الآخر ١٣٨٧ هـ ص ٢٤٦ — ٢٥٩ .

والمؤرخين مهمتهم وترشدهم الى الطريق السوى وتعينهم على الدرس والتنقيب ، وتوجههم بسهولة الى مطلبهم دون أن يتكبدوا عناء عظيما أو يضيعوا وقتا طويلا ومن أبرز المعاجم التى الفت فى هذا المجال :

١ — المعجم الوسيط :

وقد قام بوضعه لجنة من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة ويشتمل هذا المعجم على نحو ٣٠ الف مادة ، ومليون كلمة ، وستمائة صورة ، ويقع فى جزءين كبيرين يحتويان على نحو ١٢٠٠ صفحة من ثلاثة أعمدة ، وأهم ما يميزه انه مجدد ومعاصر يضع ألفاظ القرن العشرين الى جانب الفاظ الجاهلية وصدر الاسلام ، كما انه أوضح وأدق وأحكم منهجة من غيره من المعاجم الأخرى .

٢ — القاموس المحيط :

ترجع أهمية هذا القاموس الى اختصاره مع المامه فى الوقت نفسه بستين ألف مادة من مواد اللغة وهو مرتب على أحرف الهجاء ، والقاعدة فى ترتيبه انه جعل أول الكلمة بعد تجريدها بابا وآخرها فصلا .

ومن عيوب هذا القاموس انه يعرف لفظه بلفظة دون أن يذكر الفرق بينهما ، وذلك من حيث المعنى أو من حيث اللزوم والتعدية ثم أن صاحب القاموس يورد المصدر دون أن يذكر الفعل .

٣ — لسان العرب لابن منظور :

وهو معجم غزير المادة بلغت مواده ثمانين الفا وقد أشار مؤلفه فى مقدمة معجمه انه اطلع على أكثر المعاجم التى الفت فى عصره ولكنه مع شدة اعجابه بها ، وثنائه عليها كان يجد فى كل واحد منها نقصا .

وقد توسع ابن منظور فى شرح المادة اللغوية واستطرد أحيانا الى ذكر أشياء ربما كانت بعيدة عن الموضوع .

٤ — الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور لزينب فواز :

وفيه ترجمت مؤلفته لعدد كبير من شهيرات النساء العربيات والاوربيات، ورتبتهن فى اغلب الاحيان على حروف المعجم .

٥ — معجم الأطباء لاحمد عيسى :

وقد ذيل به على عيون الأنباء فى طبقات الاطباء لابن ابى اصيبعة ، ورتبهم على حروف المعجم وذكر النسبة والشهرة للمترجم ، واحال الى اسمه .

٦ — حلية البشر فى تراجم القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار وترجم فيه لمشاهير هذا القرن ورتبهم فى معظم الاحيان على حروف المعجم .

٧ — روض البشر فى أعيان دمشق فى القرن الثالث عشر لمحمد جميل الشطى ، وقد ترجم لهؤلاء الأعيان ورتبهم حسب اسم المترجم .

٨ — قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدين الزركلى وقد اقتصر المؤلف فى الترتيب المعجمى على اسم المترجم وابيه ، كما أثبت الشهرة التى عرف بها المترجم واحال الى الاسم .

٩ — اعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام لعمر رضا كحالة وقد رتب على حروف المعجم على اسم المترجم فابيه فجده .

١٠ — معجم قبائل العرب القديمة والحديثة لعمر رضا كحالة وهو يبحث فى القبائل العربية وافخاذها قبل الاسلام وبعده ، ويذكر أصولها وفروعها ، وجبالها ، واوديتها ، وعاداتها وقد رتب على حروف المعجم اسم المترجم فابيه فجده .

١١ — معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ، وقد رتب على حروف المعجم اسم المترجم فابيه فجده .

ولا يفوتنا أن نؤكد على ضرورة أن يبذل بعض المتخصصين فى عمل

المعاجم جهودهم لوضع بعض المعاجم التاريخية التى تفتقر اليها المكتبة العربية مثل .

(أ) معجم تاريخى للبلدان العربية .

(ب) معجم للمصطلحات الأثرية .

(جـ) معجم للمصطلحات التاريخية .

(د) معجم تاريخى لأهم الأماكن التاريخية فى مصر .

(هـ) معجم للمعارك الحربية التى خاضتها مصر على مر العصور .

.حقيقة لقد بذل مجمع اللغة العربية العديد من الجهود لوضع مجمع تاريخى للغة العربية [١٥] ، كما بذلت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بعض الجهود لعمل قاموس للشخصيات التى ساهمت فى تاريخ مصر [١٦] ، ولكن هذه المشروعات لم ترد النور بعد . والأمل يحدونا فى أن تتضافر الجهود لاخراج هذا الانجاز الهام .

والجدير بالذكر أن الموسوعات تختلف عن المعاجم ففى حين تتميز الموسوعات بالشمولية وتوفير المعرفة للباحثين والدارسين من كافة جوانبها ومناحيها فان المعاجم تقتصر فى منهجها على توضيح مصطلحات وتعريفات فى علم معين دون غيره من العلوم كمعاجم اللغة مثلا أو معاجم البلدان أو غيرها .

ومع ذلك فالعمل فى الموسوعات والمعاجم يحتاج الى جهود ضخمة وعمل شاق متواصل قد يطول مداه وربما تطوى فيه أعمار دون أن تدرك غايته ومنتهاه .

---

(١٥) للتفاصيل انظر . المعجم الوسيط ص ٦ — ٧ .

(١٦) انظر كتابنا : الجمعية المصرية للدراسات التاريخية — دراسة تاريخية لمؤسسة علمية .

١٦ — تاريخ الأدب :

العمل الأدبى ميزان دقيق يزن فنا رفيعا صبت فيه الانسانية خلاصة تجاربها وخبراتها ، وعبرت فيه عن مشاعرها وأحاسيسها ، وحملته آلامها وأمانيها وتاريخ الأدب جزء من تاريخ الحضارة البشرية ، فالأدب الفرنسى مثلا يضم فى سجله الفنى كل تيارات الأفكار والمشاعر التى امتدت الى الأحداث السياسية والاجتماعية أو تركزت فى النظم . والتاريخ الادبى يشابه فى صميمه المنهج التاريخى فهو يحاول أن يصل الى الوقائع العامة ، وأن يميز الوقائع الدالة ، ثم يوضح العلاقة بين الوقائع العامة والوقائع الدالة . لذلك كان من المفيد للباحث فى التاريخ الرجوع الى تاريخ الأدب ليستقى منه المعلومات التى ربما لا يجدها فى الوثائق أو المصادر الأصلية وخاصة أن موضوع التاريخ هو الماضى ، وتاريخ الأدب يدرس الماضى أيضا (١٧) .

١٧ — الفهارس :

يتوقف تقدم الدراسات التاريخية على تنظيم دور الوثائق والمكتبات ، وهذا يعنى أن عمليتى الفهرسة والتصنيف ضروريتان لتوفير جهود الباحثين خلال تعرفهم على المادة العلمية لبحوثهم . وقد ساعد انشاء أقسام الوثائق والمكتبات بالجامعات على تخريج العديد من المتخصصين فى هذا الطام .

والى جانب ما سبق ذكره فمن المفيد أيضا أن يلم المؤرخ بطائفة أخرى من العلوم المساعدة مثل المنطق الذى يفيده فى عملية البناء التاريخى، وتفهم موضع التاريخ بين سائر العلوم هذا الى جانب علم الأجناس ، وعلم الاقتصاد ، وعلم السياسة وعلم السكان والاحصاء والفلك والنبات والحيوان وغيرها .

---

(١٧) محمد مندور : النقد المنهجى عند العرب ، القاهرة ، دار نهضة مصر د.ت ص ٣٩٧ .